إسهامات أبي القاسم سعد الله في حركة الشعر الحر الجزائري

The contribution of Abi Al-Qasim Saadallah to the Algerien free poetry movement

عبد القادر تومليلين*

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة، (الجزائر)، toumliline@hotmail.fr

تاريخ الارسال2022/09/22 تاريخ القبول 2022/10/19 تاريخ النشر2023/03/20

ملخص:

تناول موضوع مقالنا الموسوم بـ (إسهامات أبي القاسم سعدالله في حركة الشعر الحر الجزائري) في مقدِّمته الحديث عن الجهود الكبيرة التي بذلها أبو القاسم سعدالله، في بناء الصّرح الثقافي الأدبي الجزائري، باحثا وأديبا وناقدًا، فمؤرخاً، ثم فصّلنا القول فيه عن إسهامه في تنشيط الحركة الأدبية الجزائرية الحديثة، بدءًا بذكرنا لاستعداده الفطري، وخصائص البيئة التي نشأ وتعلم فيها. وهي العوامل التي ساعدته على أن يتفاعل مع أحداث الثورة الجزائرية، وهي في بدايتها تفاعل الفنان المبدع؛ فكان من أوائل الشعراء الذين أذاعوا صوت الثورة في المشرق العربي، وعرّفوا فيه أهله بجانب من الأدب الجزائري الحديث الذي كان له فيه ريادة نظم الشعر، كما شهد له على ذلك العديد من النّقاد قبل أن تنال الجزائر حريتها؛ فيجد "سعد الله" بعدها نفسه مضطرًا إلى التخلِّي عن نظم الشعر، نتيجة ظروف ذاتية ووطنية موضوعية أملتها مصلحة البلاد، بانصرافه إلى مجال البحث والتكوين.

الكلمات المفتاحية: أبو القاسم سعد الله؛ الأدب الجزائري الحديث؛ الشعر الحر؛ الريادة؛ الثورة الجزائرية.

Abstract: The subject of our article tagged with (The Contributions of Abi al-Qasim Saadallah to the Algerian Free Poetry Movement), in its introduction, discusses the great efforts made by Abu al-Qasim Saadallah in building the Algerian literary cultural edifice, as a researcher, writer, critic and historian. Then we detailed in his contribution to the revitalization of the modern Algerian literary movement, starting with our remembrance of his innate readiness and the characteristics of the environment in which he grew up and learned, which are the factors that helped him to interact with the events of the Algerian revolution, at its beginning as a creative artist, and he was one of the first poets who broadcasted the Voice of the Revolution in the Arab east countries .And they knew about him a part of modern Algerian literature in which he pioneered the free poetry systems, as many critics testified to him before Algeria gained its freedom. After that, Saadallah finds himself compelled to abandon poetry systems as a result of objective subjective and national circumstances dictated by the country's interest by turning to the field of research and training.

Keywords: Abu al-Qasim Saadallah; modern Algerian literature; free poetry; pioneering; the Algerian revolution**.**

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

الحديث عن أبي القاسم سعدالله، حديث شائق وممتع، يدعو إلى اعتزاز وافتخار كلّ جزائري محبّ لوطنه، معتزّ بأمّته، لا لشيء إلاّ لما قدّمه هذا الرّجل من أعمال جليلة للبلد الذي أحبّه؛ فأفنى عمره في سبيله، إذ وهب حياته كلّها للجزائر التي أعلن عن عشقه لها شاعرًا، وعرّف بعلمائها وأدبائها باحثًا، ودرس وقيّم أعمال مبدعيها ناقدًا، والتفت إلى تاريخها الذي حاول الاستعمار طمسه ثمّ محوه؛ ففتّش وبحث عنه، ثمّ كتبه بكلّ اقتدار مؤرِّخًا، فكان بكلّ هذا مثقفًا موسوعيا، ووجها من وجوه الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، أثرى المكتبة الجزائرية بالعشرات من المؤلّفات لبعث تراث الجزائر الثقافي وبناء وصيانة الذاكرة الجماعية للمجتمع الجزائري والأمّة الإسلامية. وقد حُقَّ له أن يحمل الألقاب المشرّفة التي أُطلِقت عليه، ومن أشهرها «شيخ المؤرِّخين الجزائريين وقُدوة الباحثين ومؤرِّخ الأجيال والعلاّمة الزاهد»[1].

2. رحلة أبي القاسم سعد الله في الشعر

الأمر المسلم به الذي يجهله الكثير من النّاس، هو أنّ أبا القاسم سعدالله بدأ حياته الثّقافية بنظم الشعر، قبل أن يتحوّل عنه إلى كتابة التّاريخ الذي عُدَّ مؤسِّسًا لمدرسة قائمة بذاتها فيه من خلال ما كتبه فيه من مؤلّفات.

وقد كان لثقافة "سعدالله" التي اتّسمت بالطابع العربي الإسلامي المحافظ، وللبيئة الصحراوية التي نشأ فيها الأثر البالغ في شاعريته بما غرسته فيه من صفاء الذهن وحبّ العزلة والصراحة والبساطة، يضاف إلى هذا العامل أو المحفز الموضوعي والقوي تألّمه من استعباد بلاّه وتوجّع أهله.

كل هذه العوامل وغيرها فجّرت قريحته؛ فنطق شعرًا، وعن قصته مع الشعر يقول «في عام 1954 نشرت لي مجلّة (الآداب) البيروتية مقالا، أذكر أنّه كان بعنوان (أرض الملاحم)، تناولت فيه علاقة الأحداث الجزائرية بأدب الملاحم، وبعد قدومي إلى المشرق العربي (خريف 1955) صدمني ضعف العناية بأدب المغرب العربي وأدب الجزائر خاصة؛ فأخذت على عاتقي أَنْ أعرّف على الأقل بالأدب الأخير، وقد كانت أحداث الثورة في الجزائر تشجّعني، وتثير حماسي لزيادة البحث، وكانت نتيجة ذلك الجهد بعض الأشعار والأبحاث التي تناولت أدب الجزائر من جوانب مختلفة»[2].

ويضيف "سعدالله" قائلا: و«إلى جانبي الشعر الذي كنت أبعثه بين الحين والآخر إلى بعض الدوريات العربية، نشرت عدّة أبحاث مطوَّلة عن الأدب العربي في الجزائر (...) وحين نشرت مجموعتي الشعرية (النّصر للجزائر) سنة 1957، استقبلها الجمهور العربي بحفاوة خاصّة»[3].

وعن نشر هذه المجموعة يقول: «كانت الثّورة الجزائرية قد دخلت سنة 1956 مرحلة هامّة من حياتها خصوصًا بعد مؤتمر الصومام، واندمجت فيها اندماجًا كليًّا بالعاطفة والرّوح والعقيدة والكلمة، ثمّ جاءت معركة

مدينة الجزائر وإضراب 1957، وتطوّرت الأحداث بسرعة وأصبحت الثورة حديث الجميع، معجبين ومستفسرين وباحثين، قوميين وشيوعيين وبعثيين وكتابًا، ونقّادًا (...) وخلال ذلك اجتمع لديّ عدد من القصائد الوطنية والعاطفية كنت قد نظمتها بين سنوات 1954 – 1956 بالجزائر ثمّ القاهرة؛ فأخذت أبحث عن ناشر لشعري (...) وقد لاحظ عليّ ذلك أحد المتعاطفين مع القضية الجزائرية (...) فنصحني بعرض ديواني على (دار الفكر) التي كان مديرها الشّاعر اليساري "كمال عبدالحليم"»[4].

فعمل "سعدالله" بفكرة من نصحه «ولم تمض سوى بضع أسابيع حتى دخل (النصر للجزائر) سوق الأدب وساحة الثورة (...) فاشتراه طلاّب الجزائر في المشرق العربي «تشجيعا» لإنتاج طالب منهم ومساهمة منهم في دعم الثّورة الجزائرية، وتناولته بعض الأقلام اليسارية وأنصار الثّورة بالتّعريف والاستشهاد منه»[5].

ويعلّق "سعدالله" على أثر ديوانه في الأوساط الثقافية؛ فيقول: «ومهما كان الأمر؛ فإنّ (النّصر للجزائر) قد تُرجِم إلى عدّة لغات، ومنها اللغة الرّوسية؛ فقد ترجمه إليها الأستاذ "كرامينوف" ونشره سنة 1961 (...) وقد أخبرني الأستاذ "محمّد سعيدي" الذي كان عند نشره طالبا في موسكو بأنّه قد راج رواجًا كبيرًا، وأخبرني الأستاذ "محمّد قدّاش" أنه رأى (النصر للجزائر) في أرشيف يكس بفرنسا، مبعوثًا من القنصلية الفرنسية بالقاهرة وهو مُترجّم إلى الفرنسية»[6].

ويعبّر "سعدالله" عن وقع ذلك في نفسه؛ فيقول: قد شعرت بالرضى لأنّ بعض شعري (...) قد ظهر بين دفتي كتاب، وأنّ اسمي قد برز بين الشعراء الشباب، وأنّ مساهمتي في الثورة قد أخذت تشق طريقها[7].

وعلى الرغم من رواج هذا الديوان في الخارج بين أنصار وأصدقاء الجزائر الثائرة الذين وجدوا فيه صوتًا من أصواتها الصادقة إلاّ أنّه بقي غير معروف للقارئ الجزائري؛ فهو لم يدخل الجزائر، لأنه لم يُطبع ثانية، إلاّ بعد مَضي فترة من الزمن على استقلالها[8].

وبعد نشره لديوان (النّصر للجزائر) سنة 1956، نشر سنة 1967 ديوانه (ثائر وحبّ) وألّف بعد ذلك سنة 1985 ديوانه (الزمن الأخضر) الذي «جمع فيه كلّ أشعاره التي أُلّفت وكُتبت في الجزائر وتونس وفي القاهرة وفي أمريكا، سواء أكانت مجملة في المجموعتين الشعريتين (النّصر للجزائر وثائر وحبّ) أو متفرّقة في مخطوطات لم تُنشر من قبل»[9]. ويُعدّ هذا الديوان « ثمرة تجربة عايشها الشاعر بكلّ تفاصيلها طيلة ثلاثين سنة أو أزيد، فقد بدأ قرض الشعر سنة 1948 بتونس وأنهاها بآخر قصيدة سنة 1978 بأمريكا»[10].

وقد ضمّ ديوان (الزمن الأخضر) مئة وواحد وعشرين قصيدة بعضها ثوري والآخر وجداني، كما يذكر ذلك في مقدّمة هذا الديوان بقوله: «يعبّر هذا الشعر عن زمنين أخضرين، عهد شبابي وعهد الثورة التي هي شباب الجزائر؛ فقد نظمته في أغلبيته بين السّنوات 1950 و1960، وعندما كنت في العشرينات من عمري وكانت

الثورة الجزائرية أيضًا في ريعان قوتها، وهكذا انصهرت في هذا الشعر عاطفتان شابتان مشوبتان لا تكادان تنفصلان: العاطفة الذّاتية والعاطفة الوطنية، ولا غرابة في ذلك أن يشعّ في هذا الشعر طيش الكلمات وجنون الخيال، وثورة الرّوح تمامًا كما يحدث لشباب العشرينات، وكما يحدث للثورات؛ فكلاهما يتميّز بالتّمرد والتّحدي»[11].

أمّا بالنّسبة للموضوعات التي احتواها هذا الدّيوان؛ فيمكن إجمالها في المحاور التالية:

قصائد رومانسية، وعن هذا الجانب يقول عبدالله ركيبي، إنّ الشّعراء الذين تحدّثوا عن صباباتهم أثناء الثورة، كانت تعابيرهم خجلى مرتعشة باستحيائهم من الخوض في مثل هذا الموضوع، ولكن شعراءنا الشّبان، وقد خرجوا على هذه القاعدة، تحدّثوا عن الحبّ والغرام، ثمّ يعلّق على هذا الحكم؛ فيقول: وليس هذا وجه الامتياز في شعرهم، بل الامتياز هو ربطهم هذه التجربة بتجربة شعبهم ونضاله الجبّار من أجل الحرية، ربطوا الحبّ بالحرية والثّورة، ربطوا عواطفهم، ووفّوا لأنفسهم ولشعبهم.

ثمّ يخصّص الكلام، ويقول: ومن هؤلاء الشعراء، الشاعر "سعدالله" الذي تحدّث عن الحبّ دون مواربة أو تقية. ويبدو أنّ "سعدالله" كان أسبق شعرائنا الشباب إلى الغزل، وذِكْر الأحبة[12].

وإلى جانب هذه القصائد الذاتية؛ فقد ضمّ الدّيوان قصائد تصف الثّورة وتجسّد نضال الشّعب في حبّه لوطنه؛ فجاءت تعبيرًا عن الحياة التي عاشتها الجزائر وراء القضبان عشرات السّنين وصورة للصراع من أجل البقاء وصدق لخلجات الشّعب وأنّاته وصوتا لكفاحه[13]. ولم يستطع الشّاعر كبت لواعج الحنين والشوق، وهو بعيد عن وطنه؛ فعبّر في مجموعة من قصائد هذا الديّوان عن تجربته القاسية التي عاشها بعيدًا عن الوطن والأهل في ديار الغربة، في غربة اللّيالي السود، وفي حشد الذاكرة بصور الحرب والدّمار، مع بصيص لاستشراف النّصر، الّذي كان يلوح آنذاك من بعيد[14].

فراح في إحدى قصائده الموسومة بـ (احتراق)، يؤنّب ويلوم ويعاتب الشّعراء ساعتها على سكوتهم وعدم تجاوبهم مع اندلاع الثّورة التّحريرية، وقد قال عبدالله ركيبي عن هذه القصيدة «وأعتقد أنّ أوّل قصيدة ظهرت للثورة في أوّل الثّورة، هي قصيدة الشاعر "سعدالله" بعنوان (احتراق)؛ فقد صدرت هذه القصيدة بتاريخ 11-02-1955، ولم نعثر على غيرها من شعر الثورة في هذه الفترة التي قطعت فيها الثورة مرحلة هائلة، وقد أهداها إلى «شعراء الأبراج» كما سمّاهم، وهو يقصد أولئك الذين لم تحرّك نفوسهم هذه الثورة العارمة، ولم يهتموا بما يجري في وطنهم»[15].

ويعلّق عبد الله ركيبي عن موضوع قصيدة أخرى لـ "سعدالله"؛ فيقول: «وله قصيدة أخرى بعنوان (المروحة) (...) تحدّث فيها الشاعر عن حادث «المروحة» التي زعمت فرنسا أنّها السّبب في غزو الجزائر، وهذا اللّون من

الالتفات إلى تاريخ الجزائر قليل في شعرنا، بل نادر إلى حدّ العدم، في حين أنّه منبع يزخر بمادة دسمة، ففي تاريخ الجزائر من الحوادث والمواقف والبطولات ما يصلح أن يكون مادة خصبة لملاحم شعرية»[16].

وفي زخم هذه الموضوعات الذاتية والوطنية؛ فقد خصّص الشاعر في هذا الديوان ذاته حيّزًا لقصائد تناولت موضوعات متنوّعة منها قسم لعلاقاته الخاصة مع بعض المقرّبين منه في مناسبات خاصّة التي «شارك في التّعبير عنها مشاركة شعرية بالغة التّعبير والتّأثير عبر بعض القصائد ومنها مرثية لابن باديس «نجوى العبقرية»، ومشاركته للشاعر محمد العيد آل خليفة في «هزار الشعر»، بمناسبة سكوت محمد العيد فترة عن قرض الشعر»[17]، وغيرهما من القصائد في مناسبات أخرى.

أمّا بالنّسبة لترتيب قصائد هذا الدِّيوان؛ فعن ذلك يقول "سعدالله" و«قد خطرت لي عدّة خواطر حول ترتيب هذا الشّعر؛ فخطر لي أن أرتّبه موضوعيا؛ فتأملته؛ فإذا هو كما سبق لا يخرج عن الوجدانيات والثوريات إلاّ قليله، لم يخطر لي أن أجعله أقسامًا. ما نظمته في تونس وما نظمته في القاهرة، وما نظمته في أمريكا والجزائر من جديد، وأخيرًا خطر لي أن أرتبه زمنيا، فأبدأ بأوّل قصيدة وجدتها وأختمها بآخر قطعة قلتها، ولم أشأ أنْ أستقلّ برأيي في هذا التّرتيب، فاستشرت عددًا من الزملاء والشعراء والنّقاد؛ فحبّذوه»[18].

ولا شكّ أن كلّ هذه الخصائص والميزات، هي التي أهلّت "سعدالله" بأن يعدّه الكثير من النّقاد واحدًا من أشهر أسماء الشعراء الجزائريين الذين تركوا بصمتهم الواضحة في عالم الشعر الجزائري الحديث، الّذين تحوّل إنتاجهم الشعري إلى حقل خصب للدراسات النّقدية والبحوث الأكاديمية الجامعية.

3. ريادة أبي القاسم سعد الله للشعر الجزائري الحر

الحديث عن الشعر الحر الجزائري يجبرنا على الحديث عن أوّل شاعر نظمه من شعراء الجزائر، وعن هذه المسألة يقول "سعدالله" نفسه «وهناك قضية أخرى أحبّ أن أشير إليها باختصار، وهي أوليّة الشّعر الحرّ، فقد تجادل النّقاد عندنا في من هو الأوّل من شعرائنا الذي أدخل هذا النّوع من الشّعر إلى الجزائر؛ فذهب بعضهم إلى أنّ رمضان حمّود أوّل من جرّب الشعر المنثور، وقال آخر إنّ عبد الكريم العقون أوّل من حاول الشّعر المقطع، ورأى فريق آخر أنّني أوّل من حرّر الشّعر من قيود الوزن والقافية»[19].

ويَفصِل "سعدالله" في هذه القضية بموضوعية علمية، ووجهة نظر أخلاقية، فيقول: «لكنّي أحبّ أن أطمئن الجميع بأن هذه القضية نسبية، ومادامت كذلك فإنّ الأولية فيها ليست مطلقة؛ فقد يكون هناك من الشّعراء من سبقني إلى الطريقة الحرّة، ولكنّه لم يُفتح له أن ينشر تجربته، وقد توجد ظروف تسمح لهذا الشعر بالإظهار والآخر بالإقبار، ولولا ظروف معّينة ما نشرت قصيدتي (طريقي) في جريدة البصائر المحافظة، وهي القصيدة التي اعتُبِرت عند فريق من النّقاد الأولى من نوعها في الشّعر الجزائري الحرّ، وأذكر أنّني شخصيًا نظمت عدّة قصائد قبل

(طريقي)، وأرسلت بها للنشر؛ فلم تُنشر، لأنّ القائمين على الجريدة عندئذ رأوا فيها خروجًا عن المألوف، ولعلّ غيري حاول النّشر وفشل، بينما أنا حاولت إلى أنْ نجحت»[20].

والقارئ المتأمِّل في هذا القول يلمس جيّدًا موضوعية دفاع "سعدالله" عن أحقيته في تربّعه على كرسي ريادة الشعر الحر الجزائري، الحكم الذي أثبتته الدراسات النقدية؛ فألفينا محمّد ناصر في كتابه (الشعر الجزائري الحديث)، يقول: «ومهما تعدّدت الأقوال حول أسبق نصّ ظهر في الجزائر من الشّعر الحرّ، فإنّ الذي لا تتعدّد حوله الأقوال هو أنّ الشاعر الجزائري الوحيد الذي اتجه إلى هذا الشّعر عن وعي واقتدار، وحاول التجديد في الإشكالية الموسيقية، وفي بنيتها التّعبيرية، هو أبو القاسم سعدالله، في حين ظلت محاولات الشعراء الآخرين من أمثال محمّد الأخضر عبدالقادر السائحي والطاهر بوشوشي والغوالمي وأبو القاسم خمّار متسمة بالتّذبذب والتّردّد. فإنّ أغلب تلك التّجارب كانت إلى الشّعر العمودي أقرب منها إلى الشّعر الحرّ»[21].

ويشهد له «النّاقد المصري محمّد أمين العالم الذي كان صديقًا له عندما كان يدرس بالقاهرة، بأنّه أوّل شاعر عربي في الجزائر يخرج على المألوف في التعبير الشّعري التقليدي، وينتهج الصّياغة الجديدة، ويبلغ منها شأنا طيّبًا من الإجادة، وهو زهرة تفتّحت في حقول الوعي والنضال، وتعمّقت جذورها واقع أرضنا وتراثنا العربي القومي واستلهمت أفضل ما فيه من معان وقيم وفضائل»[22].

وعن سبب توجّه "سعدالله" إلى الشّعر الحرّ يقول: «كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947 باحثًا فيه عن تفتّحات، ولكنّي لم أجد سوى صنم يَركع أمامه كلّ الشّعراء بنغم واحد، وصلاة واحدة، غير أنّ اتصالي بالإنتاج القادم من المشرق، لا سيّما لبنان، واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظرية النّقدية، حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التّخلّص من الطريقة التّقليدية في الشعر»[23].

وبما أنّ "سعدالله" كان وطنيات حتّى النخاع «فإنّه كان من أوّل النّاس شعورًا بإرادة التّغيير والتّطور والإفصاح عنهما بما يتناسب مع هذا الانقلاب الذي يهزّ أركان نفسه، وهو يعيش زخم هذه الثورة بكلّ حرارتها، وبكلّ أبعادها»[24]؛ فرأى أنّه بمقدار ما كان متحرّرًا رافضًا للوجود الاستعماري، والجمود الفكري الذي يسبح فيه في بحره الكثير من أدباء الجزائر المتقدِّمين عن زمن الثّورة، بقدر ما رأى وجوب تجاوبه مع الحركة الشعرية التي وجد في قالبها الفني، القالب الذي يسع معاني قيم عظمة الثورة الجزائرية؛ فتعلّق بهذه الثورة.

ويذكر لنا "سعدالله" كذلك أنّه «من أهمّ العوامل في اختياره الشّعر الحرّ أثناء تواجده بتونس، تعرّفه على بعض الشعراء الشّباب التونسيين وتكوينهم معًا رابطة أدبية أسموها (رابطة القلم الجديد) يدور الحديث فيها عن الإنتاج الأدبي، وما تنشره المجلاّت والجرائد في ميدان الشّعر الجديد، وكانوا يقرأون فيها إنتاجهم الشّعري»[25].

ويُضاف إلى هذا العامل أن "سعد الله" عندما انتقل من تونس إلى القاهرة «وجد مجلا أرحب، وتوثّقت صلته بالشعر الحرّ بربط علاقات أدبية مع شعراء مصر «المتمرّدين عندئذ» أمثال أحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصّبور وعبد الرحمن الخميسي (...) ورجاء النّقاش وغالي شكري، كما كان يشارك في النّدوات الأسبوعية التي كانت تضمّ بعض الشعراء الشبان الدارسين بكلية دار العلوم، حيث يلقون ما يكتبونه من شعر حرّ»[26].

ويقرّ "سعدالله" في هذا السّياق بأنّه «كان يتابع وهو طالب بالقاهرة السّياب ونازك الملائكة، ويُعجب بنزار قبّاني، ويقدِّره لأنّه مدرسة بذاتها.

وكانت صلة "سعدالله" بمجلة الآداب البيروتية ومشاركته فيها قراءة ونشرًا، ممّا جعله على اتصال دائم بالشّعر الجديد الذي كانت الآداب تحتضنه بالنشر وترعاه بالتّوجيه والنّقد، وتكون أهمّ مجال لإذاعته في الوطن العربي قاطبة»[27]؛ فكان بكلّ ذلك كما يشهد له الكثير من النّقاد في المشرق والمغرب أوّل شاعر جزائري خاض تجربة شعرية ناضجة في نظم الشّعر الحرّ، تفوّق بها فنّيا على كلّ من ادّعى منافسته من الشعراء الجزائريين على ريادة الشّعر الحرّ في الجزائر.

4. أسباب تخلّي سعد الله عن نظم الشعر

لعلّ من أهمّ الأسباب التي دفعت بـ"سعدالله" إلى الإقلاع عن نظم الشعر، هي الظروف التي لم تخدمه كمبدع، وأهمّ هذه الظروف هي عدم الاستقرار وصعوبة النّشر، وعن ذلك يقول: «وليس غريبا أنْ أقول إنّ كثيرًا من شعري قد ضاع لأسباب عديدة من ذلك الإهمال، وعدم الاحتفاظ بالنسخ منه، فقد كنت أكتب القصائد وأبعث بها إلى الجزائر أو تونس أو القاهرة أو بيروت (...) ولولا تركي لعدد من كراسات شعري عند أخي علي سعدالله بالقاهرة، ومجيئه هو بها سالمة إلى الجزائر بعد الاستقلال لفقدت شيئًا ثمينًا في حياتي، كما احتفظ لي بالقاهرة المرحوم الشيخ أحمد توفيق المدني بنسخة من ديواني (أغاني الجزائر)، ثم جاء به كاملا وسلّمه لي كاملا سنة 1980»[28].

وفي هذا الكلام تصريح واعتراف بما صادفه الشّاعر من عوائق، وهو في أعزّ عطائه الشعري، قبل أنْ تستقلّ الجزائر وترسله حكومتها في بعثة علمية إلى أمريكا، وفي الجامعة التي تلقّى بها الدّراسات التّاريخية التي أولاها كلّ العناية، لتنفجر من يومها مواهبه الفذّة في التّنقيب عن ما حاول الاستعمار الفرنسي طمسه وتشويهه من تاريخ الجزائر السّياسي والثقافي والأدبي وكل ما يمس وجودها؛ فأخرجه من عتمة النسيان إلى عالم النّور مشرقا متلألئًا، فنال بذلك إعجاب الأوساط العلمية في كلّ ربوع العالم الذي تنافست جامعاته على توظيفه، للاستفادة من علمه؛ فما رأيته إلاّ متنقّلا بين جامعات أمريكا وأوروبا وآسيا، محاضرًا أو مشاركًا في تنشيط ندوات أو ملتقيات أو مؤتمرات علمية، مع تخصيص باقي وقته للجامعة الجزائرية باحثًا ومحقّقًا علميا ومدّرسًا ومكوّنا.

وعن نشاطه يقول فيه «صديقه المؤرِّخ الجزائري، يحي بوعزيز: إنّه علَم من أعلام الجزائر الكبار، وعملاق التّاريخ الجزائري بلا منازع، قضى كلّ حياته في البحث والتّنقيب والاطلاع والدراسة والتمحيص؛ فأنت لا تراه إلاّ وهو متأبِّط لكتاب أو مجلّة أو مجموعة أوراق وجرائد، ولا تراه إلاّ وهو ذاهب أو عائد من الدّراسة في المعهد أو المكتبة، أو أية مؤسسة تربوية وثقافية»[29].

ومن المؤكّد أنّه من كان يقضي بياض نهاره في التّدريس والتكوين، وسواد ليله في البحث والتأليف، لن يجد المناخ المناسب لقرض الشّعر من استقرار يضمن له الهدوء الذي يتيح له فرصَة التّأمل ووقتًا يسمح له باستجماع مشاعره الفنية.

وفي هذا السّياق يقول: «حقًّا إنّي بدأت بكتابة الشّعر خصوصًا الذاتي والاجتماعي والوطني منه، ولكن أحداث الثورة الجزائرية التي صادفت لحظات النضج الفكري عندي قادتني إلى دراسة ماضي الجزائر»[30]. ثمّ يعدِّد المشاغل التي سرقت منه الوقت، والظروف الثقافية القاسية التي وجد نفسه فيها في أمريكا حيث يقول: «وأخذت أتعلّم اللّغة الإنجليزية، ثمّ سجّلت في التاريخ بالجامعة، ورحت أدرس ليلا ونهارًا وأقرأ الكتب المقرّرة وأعِدّ الأبحاث وأحضّر الدروس وأتعلّم منهجية البحث، ولا أكاد أجد وقتًا للتأمّل والخلوة ولا رائحة الشرق، ولا كتب ودواوين الشّعر، وهكذا أحسست كأنّما حيل بيني وبين الشّعر، كما حيل بين المجنون وليلاه، بل كنت أحسّ أنّني على موعد مع الشّعر "بعد" الانتهاء من الدّراسة، ولكن ذلك التلاقي لم يأت أبدًا، ولن يأتي»[31].

وخصوصًا بعد أنت ظهرت ظروف جديدة عندما نالت الجزائر استقلالها؛ فالتفتّ أبناؤها حولها لترميم ما ألحقته فرنسا من خراب بالجزائر على جميع الأصعدة، وقد كان أبو القاسم سعدالله أحد هؤلاء الأبناء الذين وضعوا أنفسهم رهن خدمة بلدهم؛ فانغمسوا في مجال البحث والتدقيق والتأليف والترجمة والتّدريس والتكوين، دون أن يكون له من الوقت الفسحة اللازمة التي يستثمرها لقرض الشّعر.

وقد عبّر عن هذا الانشغال، لما سأله أحد صحفي جريدة الشعب على هامش انعقاد مؤتمر كتاب وأدباء المغرب العربي الذي عُقِد بطرابلس (ليبيا) في 1969، عن قضية موقف المؤتمر من تفرّغ الأديب، فقال: «إنّ تفرّغ بعض الكتاب شيء جيّد، وقد نصّت توصيات المؤتمر على ذلك، وأعرف أنّ قوانين مصر وسوريا تسمح بالتّفرغ بشروط، وأملنا أن يكون في استطاعة الجزائر أن تُحْدِث ذلك أيضًا، حقًّا إنّ الأمر غير هيّن في الجزائر، لأنّ عدد الكتاب قليل، وقليل منهم من يعتبرون أدباء بالمهنة، زد على ذلك حاجة البلاد الآن إلى كلّ مثقف للمساهمة في مجالات النشاط المختلفة»[32].

وهذه الوضعية هي التي أكدّها بعده محمّد ناصر في كتابه (الشعر الجزائري الحديث)، عندما قال: «إنّ جيل الرّواد الذين كانوا يواصلون العطاء في فترة الثّورة التّحريرية، ويحاولون تطوير القصيدة – على قلتّهم الشديدة –

انسحبوا من الميدان الشعري تحت تأثير أسباب موضوعية مختلفة، ومن ذلك انصراف بعض الشعراء الرّواد إلى استكمال دراستهم وتوجّههم إلى الأبحاث الأكاديمية والانشغال بعدها بالتّدريس في الجامعة، وتحمّل أمانة تكوين الأجيال الصّاعدة»[33].

وقد كان "سعدالله" واحدًا من أشهر من يمثّل هذا الجيل الذي دفعته هذه الأسباب الموضوعية إلى ترك مجال الإبداع الشعري والتوجّه إلى الأبحاث العلمية.

4. خاتمة:

ما يمكن استخلاصه أخيرًا، ونحن نتحدث عن العلاّمة "سعدالله" هو اعترافنا وتقديرنا لتضحياته الجسام من أجل الجزائر، إذ وهب عمره كلّه باحثًا لرفع شأنها؛ فوهبه الله جلال العلماء.

وكما كان في نشاطه وبحثه العلمي رائدًا وصادقا، كان كذلك في إنتاجه الإبداعي، وإنْ كان يجمع في شعره بين النّمطين التقليدي والجديد؛ فإن النّقاد والدارسين حين يؤرِّخون لبداية ظهور الشعر الحرّ في الجزائر يذهبون إلى أنّ البداية الجادة لظهور هذا النّمط من الشعر الجزائري، إنّما تجلت في قصيدته (طريقي) التي نشرت في جريدة البصائر التي منحته حقّ الأبوة في تمهيد الطريق للشعراء الشباب وقتها لنظم الشعر وفق الطريقة الجديدة.

وقد كان له شرف السّبق إضافة إلى هذا الفتح الأدبي، التّعبير عن ألام الشعب وأماله بقصيدته (احتراق) التي يعتقد عبدالله ركيبي أنّها كانت أوّل قصيدة ظهرت للثورة في أوّل الثورة.

5. قائمة المراجع:

- المؤلفات:

1- أبو القاسم سعدالله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، الطبعة الخامسة، 2007.

2- أبو القاسم سعدالله، النصر للجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1986.

3- عبد الله ركيبي، دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، الدّار القومية للطباعة والنشر، الجزائر، د/ط، د/ت.

4- أبو القاسم سعدالله، الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د/ط، 1985.

5- محمّد ناصر، الشّعر الجزائري الحديث (اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925–1974)، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، 2006.

6- أحمد فرحات، أصوات ثقافية من المغرب العربي، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، د/ت.

7- بو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرّحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د/ط، 1983.

- المذكرات:

1- شبرو عبدالكريم، التّجربة الشعرية عند أبي القاسم سعدالله، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 2007/2006، إشراف الدكتور سعيد لراوي.

- مواقع الانترنيت:

1- محمّد سيف الإسلام، بوفلاقة، أبو القاسم سعدالله: العلاّمة المجدِّد ذكرى وذاكرة، *Pulpit.Alwatan Voice.com* تاريخ التصفح: 2021.03.01.

6. الهوامش:

[1]- محمّد سيف الإسلام، بوفلاقة، أبو القاسم سعدالله: العلاّمة المجدِّد ذكرى وذاكرة، Pulpit.Alwatan Voice.com تاريخ التصفح: 2021.03.01.

[2]- بو القاسم سعدالله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، الطبعة الخامسة، 2007، ص07.

[3]- أبو القاسم سعدالله، النصر للجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1986، ص07.

[4]- المصدر نفسه، ص10-11.

[5]- المصدر نفسه، ص12.

[6]- المصدر نفسه، ص13-14.

[7]- ينظر: المصدر نفسه، ص12.

[8]- ينظر: المصدر نفسه، ص14.

[9]- شبرو عبدالكريم، التّجربة الشعرية عند أبي القاسم سعدالله، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 2007/2006، إشراف الدكتور سعيد لراوي، ص55.

[10]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[11]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[12]- ينظر: أبو القاسم سعدالله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص76-77.

[13]- ينظر، المصد نفسه، ص32.

[14]- ينظر: شبرو عبدالكريم، التّجربة الشعرية عند أبي القاسم سعدالله، ص54.

[15]- عبد الله ركيبي، دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، الدّار القومية للطباعة والنشر، الجزائر، د/ط، د/ت، ص66.

[16]- المرجع نفسه، ص69.

[17]- شبرو عبدالكريم، التّجربة الشعرية عند أبي القاسم سعدالله، ص31.

[18]- أبو القاسم سعدالله، الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د/ط، 1985، ص11.

[19]- أبو القاسم سعدالله، النصر للجزائر، ص08.

[20]- المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[21]- محمّد ناصر، الشّعر الجزائري الحديث (اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925–1974)، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، 2006، ص151.

[22]- محمّد سيف الإسلام بوفلاقة، أبو القاسم سعدالله: العلامة المجدِّد ذكرى وذاكرة.

[23]- المرجع نفسه.

[24]- محمّد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص155.

[25]- المرجع نفسه، ص157.

[26]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[27]- المرجع نفسه، ص158.

[28]- أبو القاسم سعدالله، الزمن الأخضر، ص11-12.

[29]- محمّد سيف الإسلام بوفلاقة، أبو القاسم سعدالله: العلامة المجدِّد ذكرى وذاكرة.

[30]– أحمد فرحات، أصوات ثقافية من المغرب العربي، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، د/ت، ص37.

[31]– أبو القاسم سعدالله، الزمن الأخضر، ص13.

[32]– أبو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرّحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د/ط، 1983، ص183.

[33]– محمّد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص161.